

## محاضرة رقم 11 علاقة الفن التشكيلي بالمجتمع:

تلك المقولة المشهورة بأن الإنسان ابن بيئته لا زالت تتلقفها الدراسات بالتأكيد على مضمونها حيث لا يكفي الإنسان بأن يكون فردا منعزلا، لذا فهو دائما يطمح في أن يجعل فرديته اجتماعية، من أجل أن يخرج من حدود جزئيته، لكي يصل الى المحيط الذي ينتمي إليه» فالعمل الفني يعتبر أداة منذ العهود البدائية الأولى ، حيث يعكس الافكار و المشاعر السائدة في فترة تاريخية معينة ، فكان يؤدي وظيفة نفعية لأنه يلبي حاجات إجتماعية مادية و معنوية ، فهو من جانب يمثل أداة للعيش والعمل، كما يستخدم في تأدية الطقوس الخاصة بتقديس عبادة الأجداد، أو طرد الأرواح الشريرة أو جلب قوى الخصوبة.

إن طبيعة الأنسان تسير وفق قانون إجتماعي له تداعياته على الفرد والمجتمع، و يعد العمل الفني هو النشاط الذي يتميز به عن باقي الكائنات فالعلاقة الجدلية بين الانسان و بيئته و ثقافته قديمة قدم الانسان نفسه، والفنون من هذه الزاوية أداة نفعية وظيفية، تستهدف التكيف و حل مشكلات الحياة، والانسان الذي يمارس نشاطا ابداعيا ذاتيا محضا انما يشبع احتياجات لديه متأثر بظروف المكان و الزمان والثقافة.

فالفنان كما نعرفه اليوم كان حرفيا كالنجار و الحداد يلبي احتياجات الحياة اليومية، كذلك الحال في كل المظاهر التي نعتبرها فنية في المجتمعات البسيطة بما في ذلك الزخارف التي كانت في الاسلحة الحربية و الأواني الطينية و حتى الاجسام التي زخرفوها بالوشم، كل ذلك أفعال جمالية مستوحاة من البيئة الحضارية و ثقافة المجتمع ، و تلبية إحتياجات كل منهما.

إن الانسان يستجيب لتك المتغيرات على تتابع بأشكال جمالية مناسبة تختلف عما كان سائدا و لهذا يستلزم الوضع روح البحث و الدراسة في الانظمة المختلفة التي تظهر بها

المجتمعات و الاساليب الفنية التي تتفق معها لذي يجب ان ندرسها وفق نظام معين فموضوع جوهر الفن و وظيفته في المجتمع بلغ نقطة تحول في تطور المدينة الحديثة ، و اصبح فيها الجوهر الحق للفن في خطر من ان يعمى ، و اصبح الفن نفسه مندثرا من جراء سوء استعماله . و لعل هذه العلاقة أزلية منذ أن وجد الانسان على هذه المعمورة ، حيث نجد العديد من الفنون مثل الموسيقى و المسرح و السينما و الفنون الجميلة (الرسم و النحت و العمارة) قد طرأ عليها العديد من التحولات و التغييرات في مجتمعاتها وبذلك كشفت عن واقع المجتمع و بالتالي تقودنا الى التأمل تاريخي للكيفية التي لجأ اليها الفنانون في تقديم فنههم بناءا على واقعهم الاجتماعي ، و قد كان هدفهم التغيير الى حياة أفضل ، ولذى إرتبطت حياة الانسان بممارسة الفن منذ البداية و تعلقه بالعمل .

لقد إختفت تلك الاعمال الفنية التي كانت تحمل الصور و المعاني السحرية مع تطور و إزدهار الحضارة ، حيث بقيت بعضها كعناصر جمالية متوارثة وكان هذا التحول يعبر عن أوضح صورة ممكنة عن تغير الذوق الذي حدث عند مطلع القرن الثامن عشر، وكان تكون الجمهور الجديد المؤلف من أرسقراطية ذات عقلية تقدمية و من طبقة وسطى كبيرة ذات عقلية مشغوفة بالفن، والخروج من حدود الموضوعات القديمة، المحددة بدقة.

إن تتبعنا هذا الشق من الدراسة لتلك العلاقة الجلية بين الفن و المجتمع تحملنا حتما للاهتمام لتلك الصورة التي يكشف الفن فيها عن محتوياته الاجتماعي باعتباره عمليا ولا ينعزل عن المجتمع، ومنه نجد في المجتمعات البدائية وسيلة ينقل الإنسان عبرها أفكاره و يوضح من خلالها دوافعه، إضافة إلى كونه يتضمن قيم اجتماعية و عقائدية، يقدها أفراد المجتمع، فرغم أن لغة التعبير قد اتخذت هنا شكلاً رمزياً وقطعاً فهي تبدو لنا اليوم غريبة و غامضة، وقد كانت

تلك الرسومات البدائية واضحة لجميع أفراد المجتمع، من خلال التعبير بالرموز لإتجاهات و مشاعر و أفكار حاضرة ، من خلال جعلها محسوسة مجسمة بطريقة يمكن إدراكها.

فعلماء الاجتماع أناروا هذا الجانب في الطبيعة الفنية حيث أفاد بليخانوف أن العلاقة بين الفن والحياة الاجتماعية سؤال ملحا في كل الآداب التي بلغت مرحلة معينة من التطور، وغالبا ما يجاب على السؤال بإحدى طريقتين متعارضتين، فالبعض يقول إن الإنسان لم يكن للراحة، وإنما الراحة وجدت من أجل الإنسان، والمجتمع لم يصنع من أجل الفنانين، إنما الفنانون كانوا من أجل المجتمع، ووظيفة الفن هي تطوير الوعي الإنساني وتحسين النظام الاجتماعي، بينما يرفض الآخرون بشدة وجهة النظر هذه، وفي رأيهم أن الفن يقصد لذاته ليحولونه عما يعني أي إنجاز لهدف إضافي حتى ولو كان نبيلاً، أنهم يحطون من مرتبة العمل في الفن.

الثقافة الاجتماعية إذن هي حاضنة فنية بامتياز، فالفن لا يزدهر إلا في جو موات من الرحابة الاجتماعية والطموح الثقافي، ولكنه ليس شيئاً يمكن أن يفرض على الثقافة شهادة لها بالعلو والوقار، وإنما هو بحق شبيه بشرارة كهربائية تظهر في اللحظة المناسبة بين قطبين متقابلين: أحدهما الفرد والثاني المجتمع، وتعبير الفرد في هذه الحالة رمز أو قصة مشروعان من الناحية الاجتماعية.